

رحالة كثيرون زاروا تلك البلاد البعيدة وأقاموا صداقات هناك

تجار العرب نقلوا أنوار الإسلام إلى الصين

صور من أمورهم. هذا نوح عليه السلام في السفينة بمن معه لما أمر الله عز وجل الماء فعم الماء الأرض كلها بمن فيها ويمهه ومن معه. فقال أما نوح فصدقت في تسميته وأما غرق الأرض كلها فلا نعرفه وإنما أخذ الطوفان قطعة من الأرض ولم يصل إلى أرضنا إن كان خبركم صحيحا فعن هذه القطعة ونحن معاشر أهل الصين والهند والسند وغيرنا من الطوائف والأمم لا نعرف ما ذكرتم ولا نقل الينا أسلافنا ما وصفتم وما ذكرت من ركوب الماء الأرض كلها فمن الكواثر العظام التي تفرع النفوس إلى حفظه وتداوله الأمم نائلة له. فقال القرشي فهبت الرد عليه واقامة الحجة لعلمي بدفعه ذلك. فقلت وهذا موسى عليه السلام وبنو اسرائيل فقال: نعم على قلة البلد الذي كان به وفساد قومه عليه. ثم قلت وهذا عيسى بن مريم عليه السلام على حمارة والحواريون معه. فقال لقد كان قليل مدته إنما كان أمه يزيد على ثلاثين شهرا شيئا يسيرا. ثم رأيت صورة نبينا صلي الله عليه وسلم على جمل وأصحابه محدقون به في أرجلهم نعال عربية من جلود الابل وفي أوساطهم الحبال قد علقوا فيها المساويك فكبت. فقال للترجمان سله عن بكائه فقلت هذا نبينا سيدنا وابن عمنا محمد بن عبدالله صلي الله عليه وسلم. قال صدقت. لقد ملك قومه أجل المملك الا أنه لم يعاين من الملك شيئا إنما عاينه من بعده ومن تولى الأمر على أمته من خلفائه. ثم سألني عن الخلفاء وزبيهم وكثير من الشرائع فأجبته على قدر ما أعلم منها. فقال كم عمر الدنيا عندهم؟ فقلت: قد تنوزع في ذلك فبعض يقول ستة آلاف وبعض يقول دونها وبعض يقول أكثر منها فقال ذلك عن نبينكم؟ فقلت نعم. فضحك ضحكا كثيرا ووزيره وهو واقف على انكار ذلك. وقال ما حسبت نبينكم قال هذا. فقلت بلى هو قال ذلك. فأريت الانكار في وجهه ثم قال للترجمان: قل له ميز كلامك فان الملوك لا تكلم الا عن تحصيل. ثم قال لي لم عدلت عن ملكك وهو أقرب اليك دارا ومنسبا. قلت بما حدث على البصرة ووقوعي إلى سيراف ونزعت بي همتي إلى ملكك أيها الملك. فسره ذلك وأمر لي بجائزة سنوية وحلة شريفة وأمر بحملي على البريد إلى مدينة خانقو وكتب إلى ملكها باكرامي وقدمي على من في ناحيته من الأمم واقامة المنزل إلى وقت خروجي عنه. فكننت في أخضب عيش وأنعمه إلى أن خرجت من بلاد الصين.

تحمل عنواناً غير مناسب وهو «سلسلة التواريخ» وظهرت له ترجمة فرنسية عام ١٧١٨ أثارت الريبة والشك ويرجع الفضل إلى كل من المستشرقين رينو وفيران اللذين يدين لهما العلم بفضل أساس متين للرحلات البحرية التي قام بها العرب في بحر المشرق».

سردية رحلة

قال المسعودي: من طرائف أخبار ملوك الصين أن رجلا من قريش من ولد هبارين الأسود خرج إلى مدينة سيراف وكان من أرباب البصيرة ثم ركب منها في بعض مركب ومن بلد إلى بلد إلى أن انتهى إلى بلاد الصين إلى مدينة خانقو «كانتون». وكان الملك يومئذ بمدينة حمدان فأقام بباب الملك مدة طويلة يرفع الرفاع ويذكر أنه من أهل بيت نبوة العرب. فكتب ملك الصين إلى الملك المقيم بخانقو يأمره بالبحث عنه وعمما يدعيه الرجل من قرابة نبي العرب صلي الله عليه وسلم فكتب صاحب خانقو بصحة نسبة فأنزله بالوصول إليه فلما وصل اليه قال له الملك فما منزلة سائر الملوك عنكم. فقال للترجمان قل له اننا نعد الملوك خمسة فأوسعهم ملكا الذي يملك العراق لأنه في وسط الدنيا والملوك محدقة به ونجد اسمه عندنا ملكا وبعده ملكنا هذا ونجد عندنا ملك الناس لأنه لا أحد من الملوك أسوس منا ولا أضبط لملكه من ضبطنا للملوك ولا رعية من الرعايا أطوع لملكها من رعيته فنحن ملوك الناس ومن بعده ملك السباع وهو ملك الترك الذي يليها وهم سباع الانس. ومن بعده ملك الفيلة وهو ملك الهند ونجد عندنا ملك الحكمة أيضا لأن أصلها منهم ومن بعدهم ملك الروم وهو عندنا ملك الرجال لأنه ليس في الأرض أتم خلقا من رجاله ولا أحسن وجوها منهم فهؤلاء أعيان الملوك والباقون دونهم ثم قال للترجمان قل له أتعرف صاحبك ان رأيتني يعني رسول الله صلي الله عليه وسلم؟ قال القرشي وكيف لي برؤيته وهو عند الله عز وجل؟ فقال: لم أراه وإنما أردت صورته. فقلت أجل. فأمر بسفط فأخرج ووضع بين يديه فتناول منه درجا فقال للترجمان أراه صاحبه فرأيت في الدرج صورة الأنبياء فحركت شفتي بالصلاة عليهم. فقال للترجمان سله عن تحريكه لشفتيه فسألني فقلت أصلي على الأنبياء. فقال ومن أين عرفتهم؟ فقلت بما

اتسع الأفق الجغرافي عند العرب على أثر فتوحاتهم السريعة وانتشار الإسلام. وليس بخاف أنه كان لهم على أيام جاهليتهم معرفة علمية متواضعة بجغرافية بعض أقاليم موطنهم أو البلاد التي كانوا يتاجرون معها. ولكن سرعان ما اضطرت الخلفاء وقادة الحملات الإسلامية إلى جمع الحقائق الجغرافية التي تتصل بالمسالك والأبار والمدن.. الخ كما يفعل قادة اليوم والى جانب هذا أصبحت الحكومة المركزية في حاجة إلى معرفة صفات البلاد وامكانياتها في نواحي الثروة الاقتصادية. وقد ذكر المسعودي أن الخليفة عمر بن الخطاب كتب إلى أحد العلماء يطلب منه أن يصف بلاد الأرض والطقس على سكانها.

لقد دخل الإسلام إلى الصين مع تجار العرب الذين كانوا يترددون على الثغور الصينية منذ صدر الإسلام. وما برحت التجارة قبل ذلك العهد وبعده سبيلا لنشر تمدن البشر وعاداتهم. وقد كتب عن الصين المسعودي وأبو الفدا وابن بطوطة أمير الرحالة العرب.

المسعودي وهو من كبار الجغرافيين المؤرخين يصفه الأوروبيون بهيرودوتس العرب ولقبه ابن خلدون في مقدمته «بإمام المؤرخين». عاش المسعودي في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي وقد أقبل على السياحة لطلب العلم وجمع الحقائق الجغرافية والتاريخية فطاف في البلدان وقام برحلات وقد تحدث المسعودي عما لقيه من التجارب والمشاهدات خلال رحلاته في مؤلفات تاريخية ضخمة. وكان أعظم ما وصل الينا منها كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر» وهذا الكتاب يجمع بين التاريخ والجغرافيا والسياسة والعمارة. وللمسعودي قصة عن الصين ولا ننقلها لأننا نعتقد بصحتها بل لتكون مثالا لكتابات الجغرافيين العرب في الجغرافيا والتاريخ. ويقول المستشرق كراتشكوفسكي في كتابه تاريخ الأدب الجغرافي العربي الصادر سنة ١٩٥٧ ان القصة أخذها المسعودي من أبو يزيد الحسن السيرافي الذي التقاه المسعودي عام ٣٠٣ هـ / ٩١٦ وهي عن قصص سليمان بن وهب. ويقول كراتشكوفسكي: «ان مسودة أبي زيد السيرافي وصلتنا في مخطوطة فريدة موجودة في باريس أضاف إليها النسخا مقدمة لا علاقة لها بمحتويات الكتاب وزاد المشكلة تعقيدا أن المخطوطة



• ناقه

ويضرب مثل «هذا أمر لا تترك عليه الابل» للأمر العظيم الذي لا يصبر عليه وذلك أن الابل اذا أنكرت الشيء نفرت منه فذهبت في الأرض على وجهها.

ومثل «لا ناقه لي فيها ولا جمل» يضرب لمن يطلب منه الاشتراك في أمر لا يهيمه أو عند التبرؤ من الظلم والإساءة.

وعند أخذ الأمر بالجزم والوثيقة نقول «اعقل وتوكل» ويروى أن رجلا قال للنبي صلي الله عليه وسلم: أرسل ناقتي وأتوكل؟ قال: «اعقلها وتوكل».

وهناك مثل يقول «أشرب من الهيم» وهي الابل العطاش قال الله تعالى «فشاربون شرب الهيم» وهو جمع أهيم وهيماء من الهيم وهو أشد العطش قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: هي التي بها الهيم وهو داء فلا تزوي قال الشاعر:

ويأكل أكل الغبل من بعد شبعه
ويشرب شرب الهيم من بعد أن يروى

ويضرب مثل «ما استتر من قاد الجمل» للرجل الظاهر غير الخفي الذي يفعل الأشياء في العلن ولا يستتر.

قال القلاخ راجزا:
أنا القلاخ بن جناب بن جلا
أبو خناثير أقود الجمال

أي أنا ظاهر غير خفي والخناثير بمعنى الدواهي.

وكما نقول أهل مكة أدرى بشعابها فهناك مثل يرادفه في المعنى وهو «لكل أناس في بعيرهم خبر» ويعني أن كل قوم أعلم بأمرهم من غيرهم وقاله عمر رضي الله عنه في العلاء بن الهيثم السدوسي وقد وفد عليه وهو في هيئة رثة وكان دميما أعور فلما كلمه أعجب بجودة لسانه وحسن بيانه وأراد بهذا المثل أن قومه لم يسودوه إلا معرفتهم به. يضرب في معرفة القوم بصاحبهم دون الأجانب وهذا المثل من شعر عمرو بن شأس:

فأقسمت لا أشري زبيبا بغيره
لكل أناس في بعيرهم خبر

وهذا مثل مشهور عند العرب يضرب في قضاء الحاجة قيل سؤلها «كفي برغائها مناديا» قال أبو عبيد: ويضرب أيضا للرجل محتاج إلى نصرته أو معونته فلا يحضره ويعتدل بأنه لم يعلم ويضرب لمن يقف بباب الرجل فيقال: أرسل من يستأذن لك ويقول: كفي بعلمه بوقوفه ببابه مستأذنا لي أي قد علم بمكاني فلو أراد أنذني لي.

نكتفي بهذا القدر من أمثال العرب لأنه لو تركنا العنان للقلم لخط المئات من الأمثال لكن حسبنا من القلادة ما يحيط بالعنق.

ويضرب مثل «هذا أمر لا تترك عليه الابل» للأمر العظيم الذي لا يصبر عليه وذلك أن الابل اذا أنكرت الشيء نفرت منه فذهبت في الأرض على وجهها.

ومثل «لا ناقه لي فيها ولا جمل» يضرب لمن يطلب منه الاشتراك في أمر لا يهيمه أو عند التبرؤ من الظلم والإساءة.

وعند أخذ الأمر بالجزم والوثيقة نقول «اعقل وتوكل» ويروى أن رجلا قال للنبي صلي الله عليه وسلم: أرسل ناقتي وأتوكل؟ قال: «اعقلها وتوكل».

وهناك مثل يقول «أشرب من الهيم» وهي الابل العطاش قال الله تعالى «فشاربون شرب الهيم» وهو جمع أهيم وهيماء من الهيم وهو أشد العطش قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: هي التي بها الهيم وهو داء فلا تزوي قال الشاعر:

ويأكل أكل الغبل من بعد شبعه
ويشرب شرب الهيم من بعد أن يروى

ويضرب مثل «ما استتر من قاد الجمل» للرجل الظاهر غير الخفي الذي يفعل الأشياء في العلن ولا يستتر.

قال القلاخ راجزا:
أنا القلاخ بن جناب بن جلا
أبو خناثير أقود الجمال

أي أنا ظاهر غير خفي والخناثير بمعنى الدواهي.

وكما نقول أهل مكة أدرى بشعابها فهناك مثل يرادفه في المعنى وهو «لكل أناس في بعيرهم خبر» ويعني أن كل قوم أعلم بأمرهم من غيرهم وقاله عمر رضي الله عنه في العلاء بن الهيثم السدوسي وقد وفد عليه وهو في هيئة رثة وكان دميما أعور فلما كلمه أعجب بجودة لسانه وحسن بيانه وأراد بهذا المثل أن قومه لم يسودوه إلا معرفتهم به. يضرب في معرفة القوم بصاحبهم دون الأجانب وهذا المثل من شعر عمرو بن شأس:

فأقسمت لا أشري زبيبا بغيره
لكل أناس في بعيرهم خبر

وهذا مثل مشهور عند العرب يضرب في قضاء الحاجة قيل سؤلها «كفي برغائها مناديا» قال أبو عبيد: ويضرب أيضا للرجل محتاج إلى نصرته أو معونته فلا يحضره ويعتدل بأنه لم يعلم ويضرب لمن يقف بباب الرجل فيقال: أرسل من يستأذن لك ويقول: كفي بعلمه بوقوفه ببابه مستأذنا لي أي قد علم بمكاني فلو أراد أنذني لي.

نكتفي بهذا القدر من أمثال العرب لأنه لو تركنا العنان للقلم لخط المئات من الأمثال لكن حسبنا من القلادة ما يحيط بالعنق.

